



بدأت تركيا، في التاسع من أكتوبر/تشرين الأول الجاري، عملية عسكرية تحت اسم "نبع السلام"، على حدودها الشمالية الشرقية مع سوريا لتحقيق هدفين: القضاء على ما تعتبره ممراً إرهابياً تتحكم فيه مليشيات كردية تقودها قوات سوريا الديمقراطية (قسد)، والجناح العسكري لحزب الاتحاد الديمقراطي، مليشيات وحدات حماية الشعب، وتوفير ممر آمن يضمن عودة ملايين اللاجئين السوريين إلى ديارهم بعد سنواتٍ من التهجير القسري بسبب الحرب الأهلية الدائرة هناك منذ سبع سنوات.

ومنذ أطلقت تركيا حملتها، انقسم الرأي العام العربي، الرسمي والشعبي، حولها. وذلك بين من ينتقد العملية ويعتبرها "عدواناً سافراً على الأراضي السورية"، مثلما جاء في بيانات مصرية وسعودية وإماراتية، وكذلك في بيان جامعة الدول العربية التي عقدت اجتماعاً طارئاً لوزراء خارجية أعضائها السبت الماضي، ومن يعتبرها حقاً لتركيا من أجل حماية نفسها من مخاطر المليشيات الكردية المرتبطة بحزب العمال الكردستاني، والذي تصنفه تركيا والغرب منظمة إرهابية.

منبع الانقسام العربي، وهو أمر أصبح معتاداً في كل ما يخص تركيا داخلياً وخارجياً، ليس أنه يعكس انجذاباً أخلاقياً يختص بمبدأ السيادة على الأرض، ورفض أي اعتداء خارجي من بلد على بلد آخر، وإن لكننا شهدنا إلادات نفسها من البلدان نفسها على التدخلات الإيرانية والروسية في سوريا، أو في الحرب المدمّرة التي تشنها السعودية والإمارات على اليمن، أو في مواقف كثيرة متعلقة بالتعدي الإسرائيلي على الحقوق الفلسطينية. كما أنه ليس انجذاباً لحق دولة ما في حماية حدودها من أية أخطار قد تهدّد أنها القومي، حتى لو تطلب الأمر التوغل في بلدان دول مجاورة، لا تستطيع حكوماتها فرض السيطرة على أراضيها. ولكننا نتحدث عن مواقف سياسية بالأساس تعكس تجاذبات وانقسامات واستقطاباتٍ عربية، درجنا على مشاهدتها ومعايشتها مراراً وتكراراً طوال السنوات الثمانية الماضية، وتحديداً منذ بدء الربيع العربي، فالمحظوظون ضد

تركيا لا يعانون بمسألة سيادة سوريا على أرضها (بافتراض وجود هذه السيادة!)، ولا يكترون كثيراً بأن تظل سورياً دولة موحدة ومتماستة، في بعضهم كان، ولا يزال، على استعداد للتضحية بسوريا في مقابل التخلص من حكم عائلة الأسد. وهم لا يجدون فرصةً يمكن أن يهاجموا فيها تركيا، خصمهم الإقليمي اللدود، إلا واقتنصوها، واستغلواها لممارسة الابتزاز والضغط عليها كما يفعل دوماً الثلاثي الشهير للثورة المضادة (مصر والسعودية والإمارات)، خصوصاً وأن بعضهم متورط في دعم (قسد) و مليشياتها مادياً وعسكرياً، بهدف استخدامها مخلب قط في مواجهة تركيا. في حين أن المدافعين عن العملية التركية، خصوصاً من الشباب العربي، ينطلقون من موقف المدافع عن الحليف الوحيد لهم، خصوصاً في ظل القمع والإجرام والإفساد الذي يمارسه المحور المقابل لها بحقهم.

لذا، يحاول الجميع النظر إلى ما يحدث في سوريا من منظور يدعى الأخلاقية، ظاهرياً، ولكنه فعلياً غارقاً في التحيزات السياسية والإيديولوجية والنفسية، سواء ضد تركيا أو معها، بحيث لم تعد المسألة متعلقة بالحفاظ على سوريا والسوريين، وإنما في تركيا، باعتباره إما الشيطان الذي يجب رجمه ولعنه ليلاً ونهاراً، أو بكونه المخلص الذي يجب دعمه، وعدم المساس به، أو انتقاده، بأي حال. وهو ما يطمس أي محاولة جادة لفهم ما يحدث فعلاً وتفسيره، وعدم الوقوع في فخ التبرير لهذا الموقف أو ذاك. وهو طريقة في التفكير أصبحت تهيمن على العقل العربي، الرسمي وغير الرسمي، والنخبوي والشعبي، على حد سواء.

في حين تطلق المواقف الغربية تجاه عملية "نبع السلام" من اعتبارات سياسية وجيو استراتيجية ومصلحيةٍ بالأساس، وذلك من دون الانزلاق نحو التقييم العاطفي أو الأخلاقي للمسألة، فبعض البلدان الغربية أبدت "تفهماً" للعملية التي تقوم بها تركيا، انطلاقاً من قناعتها بأنها سوف تفعل الشيء نفسه لو كانت في موقع تركيا. كما أنها تدرك أن المسألة الكردية شائكة ومعقدة، ولا يجب المغامرة بعلاقات استراتيجية مع دولة مهمة، مثل تركيا، من أجل إرضاء مليشيات كردية. فالصالح مع تركيا أهم بكثير من أية وعود أو تأييد شفهي للأكراد. وهو ما يبدو واضحاً في الموقف الأميركي الذي ينطلق من اعتبارات براغماتية محضة، عبر عنها الرئيس الأميركي، دونالد ترامب، من دون مواربة. ويبدو هذا واضحاً في ردود الرئيس التركي، رجب طيب أردوغان، على الانتقادات التي وجهت لعمليته في الأرضي السورية، والتي اختلفت حسب مصدرها. على سبيل المثال، هاجم أردوغان مصر والسعودية على انتقاداتها بتقريعهما وتذكيرهما بكوراثهما فيما يخص قتل معارضيهما كما الحال في مصر، أو تدمير اليمن كما الحال مع السعودية. في حين تحدث بمنطق المصلحة مع الأوروبيين، حين ذكرهم بموضوع اللاجئين السوريين، وما قد يمثلونه من خطر على أوروبا إذا ما فُتح لهم الباب.

خلاصة القول، ليست المشكلة في تركيا أو في الغرب، وإنما فينا، نحن العرب الذين فشلنا في حماية بلداننا وشعوبنا، بسبب جشع حكامنا وفسادهم واستبدادهم، وأصبحنا مجرد "قطعة نرد" على طاولة اللاعبين الكبار، من دون دور لنا في تقرير مصيرنا ومصير أوطاننا.

المصادر:

العربي الجديد